حجاجية القيم في خطبة حجة الوداع

د. كمال الزماني
كلية اللغة العربية
جامعة القاضي عياض، مراكش-المغرب

ملخص:

تستند القيم إلى المشترك من التقاليد والأفكار والمبادئ السائدة في مجتمع ما، وهو ما يجعلها تؤدي دورا حجاجيا مهما في الخطاب، فهي تعمل، اعتمادا على شحنتها الدلالية والتداولية، على توجيه المخاطب توجيها مقصودا نحو خدمة نتائج دون أخرى، والتأثير فيه تأثيرا مخصوصا، وذلك بفضل استنادها إلى المواضع الحجاجية التي تضمن لها تلك النقلة الحجاجية من الشحنة التي تحملها، إلى ما هو مرغوب من المتلقي فعله.

وقد حاول هذا المقال الكشف عن الحركية الحجاجية للقيم في خطبة حجة الوداع للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، فتوصل إلى أن القيم الموظفة في هذه الخطبة تحظى بالموافقة العامة بين المخاطبين، وهو ما يجعلها، في التصور الحجاجي، في منأى عن الدحض والإنكار، ويجعل الخطيب ينفذ إلى عالم مخاطبيه، ويضمن انخراطهم في الكلام وتسليمهم به.

الكلمات المفتاحية: القيم؛ الحجاج؛ الخطاب؛ السياق؛ المخاطب.

Abstract:

Values are based on common traditions, ideas and principles prevailing in a society, which makes them play an important argumentative role in the discourse, they direct the speaker, according to their semantic and pragmatic charge, to an intentional direction to serve specific results, because they are based on argumentative places that guarantee an argumentative transition of the load they bear, that the receiver is willing to do.

This article has attempted to reveal the argumentative movement of values in the "Hujjat Al-Wadaa" discourse of the prophet Mohamed, It concludes that the values used in this speech have the general approval of the interlocutors, which makes them, in argumentative perception, far from refutation and denial, also makes the speaker commit himself /herself to the world of his interlocutors, and ensure their involvement in the discourse.

Key words: Values; Argumentation; Discourse; The context; the speaker.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تقديم:

يكتسب الخطاب حجاجيته من عناصر مقالية ومقامية متعددة، تمنح الكلام، بفضل طاقتها الحجاجية، حظا أوفر من الإقناع، وتزيد من فعاليته، وتضاعف قدرته على الاستمالة والإذعان، كما تكشف عن علاقة المتكلم بقوله، وتوضح موقفه من ملفوظه. وتعد القيم من أبرز العناصر التي يستند إليها الخطباء لتحقيق هذه الغاية، لكونها تمثل منطلقا حجاجيا مهما يحظى بالموافقة العامة بين المخاطبين، ويسمح بتأويل الكلام، وتحديد المعنى الذي يجب أن يسند إليه، فضلا عن توجيه الملفوظات توجيها حجاجيا، يحمل المخاطبين على الاقتناع بصحة القضايا المعروضة عليهم، والتسليم بها، ويجعل الخطيب يبني، انطلاقا من هذا التوجيه، القضايا الجديدة التي يريد منهم الاقتناع بها.

ولذلك، فإن القيم التي يتم اختيارها للتعبير عن الآراء والأفكار والمشاعر لا ينبغي التعامل معها باعتبارها ترفا، وإنما بوصفها جزءا لا يتجزأ من الحجاج، فهي لا تُختار اعتباطا، بل لما تحمله بين طياتها من شحنات دلالية وتداولية تكون قادرة على إحداث التأثير المطلوب. فما هي القيم؟ وما هي حجاجيتها في خطبة حجة الوداع؟

1-تعريف القيم: (Les valeurs)

جاء في لسان العرب: "والقِيمَةُ: وَاحِدَةُ القِيَم، وأَصله الْوَاوُ لأَنه يَقُومُ مَقَامَ الشَّيْءِ. والقِيمة: ثَمَنُ الشَّيْءِ بالتَّقْوِيم. تَقُولُ: تَقَاوَمُوه فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَإِذَا انْقادَ الشَّيْءُ وَاسْتَمَرَّتْ طَرِيقَتُهُ فَقَدِ اسْتَقَامَ لوجه"[1]. و"قَوَّمْتُه: عَدَّلْتُه، فهو قَوِيمٌ ومُسْتَقِيمٌ"[2]، و"قَوَّمْتُ السِّلْعَةَ تَقْوِيمًا... ثَمَّنْتُها أَي: قَدَّرْتُها"[3].

تدل هذه التعاريف على أن مفهوم القيمة يدل في معناه اللغوي عل الاستقامة، والاعتدال، وتحديد ثمن الشيء.

أما اصطلاحا، فعرفت القيم بأنها مجموعة من "المبادئ والقواعد والمثل العليا التي يؤمن بها الناس، ويتفقون عليها فيما بينهم، ويتخذون منها ميزانا يزنون به أعمالهم، ويحكمون به على تصرفاتهم المادية والمعنوية"[4]، فهي معايير تحكم سلوك المجتمع، وتوجه أفراده، وتكون "بمثابة موجهات للحكم على الأعمال والممارسات، وتكون لها من القوة والتأثير على الجماعة بما لها من صفة الضرورة والإلزام والعمومية، وأي خروج أو انحراف عنها يصبح بمثابة خروج عن أهداف الجماعة ومثلها العليا" [5]، ولذلك نجدها "تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقيم منها موازين يبرر بها أفعاله، ويتخذها هاديا ومرشدا"[6].

أما في الدراسات الغربية، فيرى بيرلمان (Chaïm Perlman)، أن القيم تسجل في اللغة حينما نكون أمام تراتبية بين شيئين، "فيكون أحد الشيئين أرفع من شيء آخر أو أحط منه، حيث يحكم على شيء بأنه أرفع، ويجب تبعا لذلك أن يخص بالتفضيل"[7].

نخلص من هذه التعاريف إلى أن القيم هي مجموع الأحكام والمبادئ والمعايير التي تحكم سلوك الأفراد والجماعات وتوجهه.

2-القيم والحجاج:

تعد القيم، حسب بيرلمان، منطلقا حجاجيا مهما يستند إليه الخطيب في الإقناع، وتبرز هذه الأهمية خصوصا في "إقناع بعض المجموعات الخاصة"[8] التي قد لا يحصل إقناعها بتوظيف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منطلقات الحجاج الأخرى كالوقائع، والحقائق، والافتراضات وغيرها. ففي ظل تعدد الجماعات البشرية واختلاف مشاربها، فإنه، لتحقيق الإقناع، لابد من اللجوء إلى القيم التي "تكون محل اتفاق بين الجميع، وهو ما يسمح بإشراك الحالات الخاصة"[9]، فنحن، كما يقول ميشيلي (Micheli Raphaël)، نلجأ إلى القيم لأننا "نعتقد أنها واضحة بشكل يجعلها غير قابلة للنقاش أو الدحض"[10]، ولذلك فالخطيب عادة ما يستند إلى "قاعدة قيم يفترض أنها مشتركة بينه وبين مخاطبه"[11]، فلا أحد يمكنه أن يرفض القيم المشتركة كالعدل والسلام والتسامح والعفة وغيرها، لأن رفض هذه القيم، كما يقول بيرلمان، سيحول الحوار من مجال الحجاج إلى مجال القوة (Domaine de la force)[12]. فالقيم المشتركة هي قيم عالمية "يمكن التعامل معها باعتبارها حقائق ووقائع"[13]، وهي صالحة للاستعمال بالنسبة لجميع المخاطبين[14].

إن للقيم دورا بارزا في الحجاج، فهي "تتدخل، في فترة ما، في كل الأفعال الحجاجية ماعدا الاستدلالات ذات الطابع العلمي التي يتم استبعادها بسبب شكل آليات الإدراك والقواعد التي تكون نظامها. أما في الحقول القانونية والسياسية والفلسفية، فإن القيم تتدخل باعتبارها أساس الإقناع في سيرورة الحجاج من بدايتها وحتى نهايتها، وذلك بالاستناد إليها لحمل المخاطب على القيام باختيارات معينة بدل أخرى، وخصوصا من أجل تبرير تلك الاختيارات بشكل يجعلها مقبولة ومؤيدة من قبل الآخرين"[15].

وتحقق القيم هذه الأهداف اعتمادا على شحنتها التقويمية، فهي تعمل على توجيه المخاطب توجيها مقصودا نحو خدمة نتائج دون أخرى، والتأثير فيه تأثيرا مخصوصا، وذلك بفضل استنادها إلى المواضع الحجاجية التي تضمن لها تلك النقلة الحجاجية من الشحنة التي تحملها، إلى ما هو مرغوب من المتلقي فعله، فهذه المواضع "تمثل رافدا للقيم وهرميتها عند عملية الإقناع التي يروم الخطيب تحقيقها"[16]، لأن استنادها إلى "المشترك من التقاليد والمنظومات والأفكار والمبادئ بين أفراد الأمة الواحدة"[17]، يجعلها ذات "سلطة دامغة تجعل المتقبل يذعن ويسلم بما في الخطاب"[18].

إن المتكلم إذ يعبر عن قيمة معينة، فإنه لا يفعل ذلك فقط للكشف عن موقفه النفسي أو الانفعالي، وإنما يفعل ذلك أيضا لغايات حجاجية تتمثل في دعوة المخاطب، اعتمادا على المواضع الحجاجية، إلى الإقبال على هذا الشيء في حال استحسانه، أو رفضه والامتناع عنه في حال استقباحه. ومثالا على ذلك، فإن قول الخطيب: «بلدنا موطن العدل والتسامح والأخوة»، إذ يعبر عن قيم العدل والتسامح والأخوة، ويبرز موقف هذا الخطيب من بلده، فإن هذا القول يشكل كذلك دعوة ضمنية

للمخاطب إلى حب هذا البلد والدفاع عنه، والعمل لصالحه. لكن الانتقال من هذا القول إلى تلك الدعوة ما كان له أن يتم دون المرور عبر موضع حجاجي كالتالي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلدنا موطن العدل والتسامح والأخوة ← إذن: أحبه، دافع عنه... إلخ.

نظرا إلى أن:

–الموضع: كل بلد عادل ومتسامح يستحق أن يُحَب، وأن يدافع عنه... إلخ.

إن الأمر يصبح هنا أقرب إلى قانون العبور الذي نجده في النموذج الحجاجي لتولمين[19]، لكن الضمان في هذه الحالة يكون هو الموضع التي يضمن الانتقال بين الحجج الحاملة لقيم معينة، وبين النتائج المرجوة من وراء تضمين الكلام لهذه القيم. وعن هذا الانتقال يقول ديكرو: "إذا كان بالإمكان الانتقال من الملفوظ (م1) إلى الملفوظ (م2)، فإن ذلك يتم بفضل تدخل حد ثالث هو الموضع الذي يسمح بإقامة ارتباط بين هذين الملفوظين"[20]. وعلى هذا الأساس يكون الموضع هو الضامن الذي يقود المخاطب إلى استخلاص المقاصد التي حكمت المتكلم وهو يضمن كلامه مجموعة من القيم.

وقد قسم بيرلمان القيم إلى قسمين: قيم مجردة "كالعدل والحق"[21]، وقيم محسوسة وهي التي "ترتبط بكائن حي، أو مجموعة خاصة، أو شيء محدد"[22] كقيم "الوفاء، والنزاهة، والاستقامة، والأمانة، والإخلاص، والصدق، والتضامن، والانضباط"[23]... وغيرها.

ويتبادل هذان النوعان الدور الحجاجي أحيانا، إذ يمكن الانتقال من أحدهما للوصول إلى الآخر، كالانتقال من قيمة المساواة بين الناس (وهي قيمة محسوسة)، نظرا لأن إلاههم واحد للوصول إلى قيمة العدل (وهي قيمة مجردة). أو القيام بالعكس بحسب مقام الكلام وظروفه[24].

3–تراتبية القيم: (Les hiérarchies)

إن تعدد القيم واختلافها يجعل من الطبيعي إخضاعها لتراتبية معينة. فتحقيق وظيفتها الإقناعية داخل سياق معين لا يرتبط فقط بمدى قوتها الحجاجية داخل هذا السياق، بل يرتبط كذلك بترتيبها بحسب هذه القوة[25]، مثل "اعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان، واعتبار الإله أعلى درجة من الإنسان"[26]، واعتبار العدل أفضل من قيم نبيلة أخرى... إلخ. فالوعي "بتراتبية القيم يكون أحيانا أهم من القيم ذاتها"[27]، لأنه وإن كانت تسلم بها مجموعة من السامعين، فإن درجة تسليمهم بها تكون مختلفة من فرد إلى آخر. ولهذا فإن "ما يميز كل فرد ليست القيم التي يسلم بها، ولكن طريقة ترتيبه لها"[28].

4– حجاجية القيم في خطبة حجة الوداع:

عمل الفلاسفة، في إطار النظرية الخلقية (Axiologique)، على تصنيف الكلمات ذات التقويم الأخلاقي بحسب معيار «أحب/لا أحب» إلى محورين أساسين وهما:

-**محور الاستحسان:** ويضم كل ما يعبر عن استحسان المتكلم لشخص أو فعل أو شيء ما.

-محور الاستقباح: ويضم كل ما يعبر عن استقباح المتكلم للعناصر السابقة[29].

فإذا رغب المتكلم في شيء ما فإنه يلجأ إلى التعبير عن انفعاله به، وإبراز مدى قبوله له،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واستحسانه إياه إلى توظيف عناصر المحور الأول، أما إذا لم يقبل هذا الشيء ولم يستحسنه فإنه يعمد إلى توظيف عناصر المحور الثاني. وفي هذا النطاق يقول ستيفان لاينز (Stéphane Leyens) : "عندما يقول شخص ما بأن «هذا الشيء حسن» فإن ذلك يعني بأنه يستحسن هذا الشيء"[30]. أما عندما نقول "عن شيء آخر هو «قبيح» [فإن ذلك] يعني أننا ضده فنحن نعبر عن استقباحنا إياه"[31]، فالصفات التقويمية "«حسن/قبيح» أو «طيب/خبيث» هي، حسب شابرول (Chabrol)، صفات تعبر على مستوى البنية السطحية عن ملفوظ من مثل «أؤيد» أو «أنتقد»"[32]. أؤيد ما أقبله وأصفه بصفات الحسن، وأنتقد ما أرفضه وأصفه بصفات القبح.

أما من جهة المتلقي فإن "صفتي «حسن» و«قبيح» تأتيان... لتحسين الأشياء الموصوفة أو تقبيحها في نظره، ولإثارة عواطفه وانفعالاته بترغيبه في أمور وتنفيره من أخرى"[33]. يقول جون ديوي (John Dewey): "إن قولنا «هذا الشيء حسن» هو جملة تهدف إلى التعبير عن موقفنا من هذا الشيء من جهة، وإلى إحداث مواقف مشابهة لدى الأشخاص الآخرين ودفعهم إلى الفعل بطريقة أو بأخرى من جهة ثانية"[34]. أما قولنا «هذا الشيء قبيح/سيء» فإن ذلك يعني للمتلقي أنه شيء سَيِّء ولا يليق بنا أن نقلده[35].

والأمر نفسه ينطبق على القيم، لكونها تندرج ضمن النظرية الخلقية (Axiologique)[36]، فقولنا على سبيل المثال: «حُكم عادل»، و«زوج وفي»، و«موظف نزيه» إذ يعبر عن قيم العدالة والوفاء والنزاهة، وعن موقفنا من الموصوفات بهذه القيم، فإنه يوجهنا إلى اتخاذ موقف منها كحبها والتعاطف معها والدفاع عنها وغيرها.

وإذا عدنا خطبة حجة الوداع، فإنه يمكننا القول إن القيم التي وظفها رسول الله صلى الله عليه لا تخرج عن المحورين السابقين كما يلي:

-قيم الاستحسان:

قيم الاستحسان	المثال
-قيمة الأمانة.	-قوله عليه السلام: " فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانةٌ فليؤُدِّها إلى مَنْ ائْتمَنَهُ عَلَيها"[37]. -قوله: " فَلاَ يَحِلُّ لامْرِىءٍ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ"[38].
-قيمة المساواة.	-قوله: " إن أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وليس لعربيّ على عجميّ فَضْلٌ إلاّ بالتّقْوىَ"[39].
-قيم الحياة والأمن والأمانة والاستقامة.	-قوله: " إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَليكُمْ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ"[40].
-قيم الاحترام وحسن التعامل	-قوله: " إن لِنسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حقاً، ولَكُمْ عَلَيْهِنّ حقّ"[41]. -قوله: "إنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء"[42].
-قيمة التقوى	-قوله: " أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ"[43]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-قيمة الأخوة	-قوله: " أَيهَا النّاسُ، إنّما المُؤمِنُونَ إخْوةٌ"[44]

-قيم الاستقباح:

قيم الاستقباح	المثال
-قيمة الضلال.	-قوله عليه السلام: " مَنْ يُضَلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ "[45].
-قيمة الشر.	-قوله: "نَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسِنا "[46].
-قيم الجاهلية كالثأر والتفاخر والتباهي بأعمال الجاهلية وغيرها.	-قوله: "إن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قَوَدٌ[47] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن ازداد فهو من الجاهلية"[48]
-قيمة الاعتداء على النفس	-قوله: " فلا تَرْجِعُنّ بَعْدِي كُفاراً يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رقابَ"[49]
-قيمة الاستغلال.	-قوله: "إن ربا الجاهلية موضوع"[50].

وهكذا، فإن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لقيم «الاستحسان» كالأمانة والمساواة والعفة والشرف والاستقامة والأخوة، يدل على أنه يستحسن أداء الأمانة، وعدم أخذ مال الغير، واحترام الناس وأعراضهم، وحسن معاملة النساء... وغيرها، ويحاول دفع المخاطبين إلى استحسانها وترغيبهم فيها، وإثارة عواطفهم وانفعالاتهم تجاهها.

أما ذكره عليه السلام لبعض قيم «الاستقباح» كالضلال والشر والاستغلال وقيم الجاهلية وغيرها، فإنه يدل على أنه يستقبح الاستسلام لشر النفس وهواها، واستغلال المحتاج للمال، وقتل الغير، وأفعال الجاهلية من ثأر وافتخار وغيرها، ويرغب في دفع المخاطبين بدورهم إلى استقباحها وتنفيرهم منها. فالأمر في كلتا الحالتين لا يتجاوز، حسب النظرية الانفعالية، حدود تعبير المتكلم عن معاني الاستحسان والاستقباح ومحاولة تمرير هذه المعاني إلى المتلقي.

وإذا انتقلنا إلى الدراسات الحجاجية الحديثة، نجد أن الأمر لا يبدو بهذا الشكل، فهذه الدراسات ترى أن عملية تعبير المتكلم عن معاني الاستحسان أو الاستقباح، ومحاولة تمرير هذه المعاني إلى المخاطب بغرض إثارة عواطفه وانفعالاته تجاه هذه الأشياء لا تخلو من حجاج، بل هي أساس الحجاج ومناطه، ونكتة ذلك أن توظيف القيم في الخطاب لا يخلو، حسب بيرلمان، من قصد حجاجي، فهي تتدخل "في كل الأفعال الحجاجية"[51]، وتشكل "قاعدة الفعل الحجاجي في كل مراحل تطوره"[52]، ولذلك، فإن توظيفها في الخطاب لا يكون المقصد منه هو "وضع الموصوف في خانة ما مع سائر العناصر التي تشاركه تلك الصفة وليس [هو] الكشف عن موقفنا منه فحسب"[53]، وإنما يكون لغرض حجاجي أساس "ينبع من العلاقة الموجودة بين القيمة الدلالية لهذه الصفات ووظيفتها التداولية"[54]. ويتجلى هذا الغرض "بشكل أخص في تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن يحكم به عليه،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وطريقة معالجته"[55]، سواء بمعاقبته في حال كون القيم من محور الاستقباح، أم بمجازاته في حال كونها من محور الاستحسان.

وهكذا فإن وصفنا لشخص ما بأنه «ظالم» ليس الهدف منه فقط هو التعبير عن موقفنا من هذا الشخص واستقباحنا إياه من خلال وسمه بمعنى «الظلم»، وإنما يكون الهدف منه كذلك، وهذا هو المهم، هو "تحديد نوع العقاب الذي ينبغي أن يتلقاه"[56] جراء اقترافه لذلك الظلم. وكذلك فإن "وصف الناس لشارون بأنه: «مجرم حرب»... لم يستعمله المخاطِب لمجرد الوصف، فهو لا يخبرنا هنا، بل يحاجج، وهذا ما يلزم عنه تصنيف (شارون) في إطار معين، وبهذا الوصف، فإنه يدرجه ضمن فئة معينة لها قانونها وجزاؤها"[57]. وبهذا يمكن القول بأنه "ليس المهم في الحجاج التصنيف فحسب، بل المهم دلالة التصنيف"[58].

وعلى هذا الأساس يكون الموجه التقويمي الخلقي ذا دور حاسم، ليس فقط في تصنيف الأشياء والأشخاص ووضعهم في درجات بناء على ما ثبت لديهم من معان، ولكن أيضا في تحديد طريقة الحكم عليهم بناء على الدرجة التي وضعوا فيها. ومن ثمة، فإن تغيير الصفة يؤدي إلى تغيير الحكم وطرق المعالجة، فقولنا على سبيل المثال عن أورست (Oreste) بأنه «قاتل أمه» يستلزم حكما وطرقا في المعالجة تختلف جذريا عن قولنا عنه بأنه «الآخذ بثأر أبيه»[59].

على أن البعد الحجاجي لتوظيف القيم لا ينحصر فقط في تحديد الحكم الذي ينبغي أن يؤخذ في حق الموصوف أو طرق معالجته، وإنما يتعدى ذلك إلى دفع المخاطب إلى فعل شيء أو الكف عن فعله، إذ يُستنتج من قولنا، مثلا، «هذا العمل شريف» أمر منا لمخاطبنا بأن يقبل على ذلك العمل، كما يُستنتج من قولنا «هذا العمل دنيء» أمر منا لمخاطبنا بأن يترك ذلك العمل. فهذه القيم "يكون لها دائما تداعيات تأثيرية (Perlocutoires) على سلوك المخاطب"[60]، إذ "تجعله، من خلال الآلية: مثير/ استجابة، في وضعية المجبر على اتخاذ رد فعل معين"[61].

وهو رد ما كان له أن يتم دون الاستناد إلى مجموعة من المواضع الحجاجية التي تضمن الانتقال من الحجة إلى النتيجة من خلال ما تحظى به من موافقة بين عامة الناس، ومن خلال حمولتها الدلالية التي تؤكد على أفضلية «الحسن» على «القبيح» و«الخير» على «الشر»[62].

إن الأمر هنا يتعلق بالعبور من الحجة إلى النتيجة كما يلي:

*هذا العمل شريف ← إذن: افعل ذلك العمل، اتبعه، التزم به... إلخ.

نظرا إلى الموضع:

– كل ما هو شريف أهل لأن يفعل،

لأن يتبع، لأن يُلتزَم به... إلخ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

*هذا العمل دنيء ←إذن: اتركه، تجنبه، حاربه... إلخ.

نظرا إلى الموضع:

–كل ما هو دنيء أهل لأن يترك،

لأن يُتجنب، لأن يُحارب... إلخ.

وهكذا، فإن توظيف رسول الله صلى الله عليه وسلم للقيم المرتبطة بمحوري «الاستحسان» أو «الاستقباح» يدل على أنه يستحسن هذه القيم أو يستقبحها، ويحث المخاطبين بدورهم على استحسانها أو استقباحها، كما يدل كذلك على رغبته في دفع المخاطبين إلى فعل الأشياء الحسنة وترك الأشياء القبيحة، وإبراز نوع الجزاء الذي سيلاقوه في حال الاستحسان أو نوع العقاب الذي ينتظرهم في حال الاستقباح.

ومن ثمة، فإن القيم تحقق ثلاث وظائف حجاجية مجتمعة، وهي:

-الوظيفة الأولى:

حث المخاطبين على استحسان الموصوفات بالقيم أو استقباحها، وذلك بأن يتعاطفوا معها ويُبدوا قبولهم لها وانفعالهم بها في حال استحسانها، فيستحسنون أداء الأمانة، والمساواة، والإخاء بين الناس، واحترام أعراضهم، وعدم أخذ مال الغير، وحسن معاملة النساء... وغيرها، أو يبدون رفضهم لها في حال استقباحها، فيستقبحون الاستسلام لشر النفس وهواها، وقتل الغير، واستغلال المحتاج، وأفعال الجاهلية من ثأر وافتخار وغيرها.

-الوظيفة الثانية:

وتتعلق بدفع المخاطبين إلى فعل ما استحسوه والالتزام به، أو ترك ما استقبحوه والكف عن فعله. وفي هذه الحالة ينتقل هؤلاء المخاطبون من الدلالة اللفظية للقيمة، أي مما استحسنوه أو استقبحوه مَعْنًى، إلى الفعل أي تطبيق نتائج ذلك الاستحسان أو الاستقباح على أرض الواقع والالتزام بها، وذلك مرورا بمجموعة من المسارات الحجاجية يمكن التمثيل لها بالنماذج التالية:

_في حال الاستحسان:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

*الأمانة عمل حسن ← إذن: يجب أن نكون أمناء.

نظرا إلى الموضع:

–كل عمل حسن أهل لأن يفعل.

*الشرف عمل حسن ← إذن: يجب أن نحترم أعراض الآخرين.

نظرا إلى الموضع:

–كل عمل حسن أهل لأن يفعل.

*العفة عمل حسن ← إذن: يجب عدم أخذ مال الغير.

نظرا إلى الموضع:

–كل عمل حسن أهل لأن يفعل.

_في حال الاستقباح:

*قتل الغير عمل سيء ← إذن: يجب الكف عن قتل الغير.

نظرا إلى الموضع:

–كل ما هو قبيح أهل لأن يترك.

*استغلال المحتاج عمل سيء ← إذن: يجب الكف عن الربا.

نظرا إلى الموضع:

–كل ما هو قبيح أهل لأن يترك.

*الثأر والتفاخر عملان سيئان ← إذن: يجب الكف عن أفعال الجاهلية.

نظرا إلى الموضع:

–كل ما هو قبيح أهل لأن يترك.

* الاستسلام لشر النفس عمل سيء ← إذن: يجب كبح جماح النفس.

نظرا إلى الموضع:

–كل ما هو قبيح أهل لأن يترك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-الوظيفة الثالثة:

وتعود إلى أن هذه القيم، حين توظف في الكلام، فهي تحدد ضمنيا نوع الحكم الذي ينبغي أن يحكم به على الموصوف بها. هذا الحكم الذي يتراوح بين تحديد نوع الجزاء والمكافأة التي تنتظر من تنطبق عليه صفات الاستحسان، وبين الكشف عن نوع العقاب الذي ينتظر من تنطبق عليه صفات الاستقباح.

ومن ثمة، فإن الحكم الذي ينتظر من يؤدي الأمانة، ويعمل بمبدأ المساواة والإخاء بين الناس، ويحترم أعراضهم، ولا يأخذ مال الغير، ويحسن معاملة النساء... وغيرها هو كسب رضى الله تعالى في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة. أما الحكم الذي ينتظر من يطلق العنان لشرور النفس وهواها، ويقتل الغير، ويستغل المحتاج للمال، ويقوم بأفعال الجاهلية من ثأر وافتخار وغيرها، فهو كسب سخط الله في الدنيا، ونيل عذابه في الآخرة، فيُخيل إليه، من خلال توالي قيم الاستقباح عليه أنه "إما كافر ينتظره عذاب أليم، أو يرى القيامة قد قامت وبرزت النار تنتظر وقودها من الناس"[63]، وهو ما يدفعه إلى الإسراع إلى تبرئة نفسه من خلال العمل على تغيير موقفه، وتلك طريقة حجاجية مهمة في تحفيز الهمم[64].

الخاتمة:

نخلص مما سبق إلى أن للقيم دورا مهما في الكلام لا يقل شأنا عن توظيف القياسات البرهانية، والضمائر الخطابية، وسائر أنواع الحجج الأخرى، فهي تعد منطلقا حجاجيا مهما يستند إليه الخطيب للتأثير في الجمهور، وتبرز هذه الأهمية خصوصا في إقناع بعض المجموعات الخاصة التي قد لا يحصل إقناعها بتوظيف منطلقات الحجاج الأخرى كالوقائع، والحقائق، والافتراضات وغيرها. فالقيم تتدخل باعتبارها أساس الإقناع في سيرورة الحجاج من بدايتها حتى نهايتها، وتعمل على توجيه المخاطب توجيها مقصودا نحو خدمة نتائج دون أخرى، والتأثير فيه تأثيرا مخصوصا من خلال حثه على التعاطف مع الموصوفات بالقيم، وإبداء قبوله لها، والتزامه بها في حال استحسانها، وإبداء رفضه لها واجتنابه لنتائجها في حال استقباحها.

الهوامش والإحالات:

(1)- ابن منظور: لسان العرب، ط:1، دار صادر، بيروت، 1990مادة (قوم)

(2)- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ط:2، مؤسسة الرسالة، 1987، مادة (قوم)

(3)- مرتضى الزبيدي: تاج العروس، دار ليبيا، بنغازي، 1966، مادة (قوم)

(4)- سيد أحمد طهطاوي: القيم التربوية في قصص القرآن، ط:1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996، ص: 294.

(5)- لطفي بركات أحمد: القيم والتربية، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993، ص: 04.

(6)- فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980، ص: 294.

(7): Chaïm Perelman : L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation, Vrin, Paris, 1977, p :39-40.

(8): Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, , 2éme édition , éditions : Armand Colin , Paris, 2006, p :99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(9): Ibid , p : 99.

(10): Micheli Raphaël et Thierry Herman : Renforcement et dissociation des valeurs dans l'argumentation politique, éd : Pratiques, Volume :117-118, 2003, p : 17.

(11): Ibid .p : 09

(12): Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, op.cit , p :101.

(13): Ibidem

(14): Ibid, p :102

(15): Ibid, p :100.

(16)- عز الدين الناجح: العامل الحجاجي والموضع، ضمن الحجاج والاستدلال الحجاجي، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ط:1، دار ورد للنشر والتوزيع، 2011، ص: 96.

(17)- نفسه، ص: 97.

(18)- نفسه، الصفحة نفسها.

(19)- صاغ تولمين مجموعة من أشكال العبور (Passage) الممكنة من المقدمات إلى النتائج، وهي:

الشكل الأول:

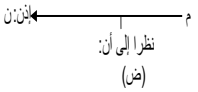

وهو شكل حجاجي يتم الانتقال فيه من المقدمة (م) إلى النتيجة (ن) باعتبار الضمان (ض)، ولتوضيح ذلك قدم تولمين المثال التالي:

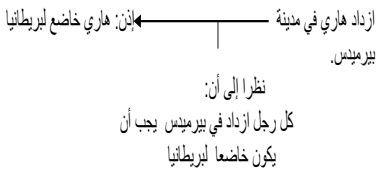

الشكل الثاني:

يعد هذا الشكل أكثر تطورا وتحديدا من سابقه، وذلك لكون تولمين قد أضاف إليه عنصرين جديدين وهما الموجه (Le qualification)والاستثناء (L'exeption) اللذين سنرمز لهما على التوالي ب (ج) و(س)، واللذين يتمثل دورهما في تحديد قوة "الضمان" وعلاقته بالعبور من المقدمة إلى النتيجة (Stephen Toulmin: Les usages de l'argumentation , éditions: Presses Universitaires de France, 1ère édition, Paris,1993, p :125)، ومن ثم يصبح الرسم كالتالي:

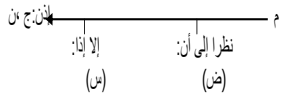

والمثال الذي قدمه لتوضيح هذا الرسم هو:

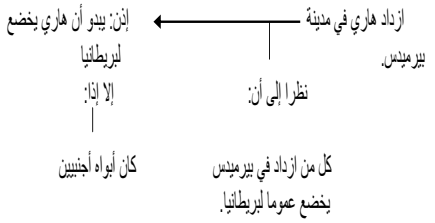

(20): Oswald Ducrot : Topique or not topique نقلا عن: رشيد الراضي: مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو، ضمن عالم الفكر، ع:2، المجلد : 34، الكويت، ص: 200.

(21): Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, op.cit , p :103.

(22): Ibidem.

(23): Ibidem.

(24): Ibid , p : 104.

(25): Ibid , p : 107.

(26): Ibidem.

(27): Ibid , p : 109.

(28): Ibidem.

(29)- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ، ط:2، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص: 150.

(30): Stéphane Leyens :Penser les concepts éthiques, justifier les engagements moraux, Presses Universitaires de Namur, 2007, p :30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(31): Francis Jacques : L'analyse des énoncés moraux

نقلا عن عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع مذكور، ص: 150.

(32): Catherine Kerbrat- Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, Paris, 1980, p : 118.

(33)- عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، مرجع مذكور، ص: 151.

(34): Jonh Dewey : La formation des valeurs, traduction :Alexandra Bilet, éditions :La Découverte, Paris, p : 195- 196.

(35): Serge Botet : La philosophie de Nietzsche, L'Harmattan, 2007, p :99.

(36): Catherine Kerbrat- Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Op.cit, p :76

(37)- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، ط:1، ج:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1923، ص: 57.

(38)- نفسه، ص: 59.

(39)- نفسه، الصفحة نفسها.

(40)- نفسه، ص: 57.

(41)- نفسه، ص: 58.

(42)- نفسه، ص: 59.

(43)- نفسه، الصفحة نفسها.

(44)- نفسه، الصفحة نفسها.

(45)- نفسه، ص: 57.

(46)- نفسه، الصفحة نفسها.

(47)- القود: القصاص أي من قتل عمدا يقتل (نفسه، ص: 58)

(48)- نفسه، الصفحة نفسها.

(49)- نفسه، ص: 59.

(50)- نفسه، ص: 57.

(51): Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, op.cit.p :100

(52): Ibidem.

(53): Ibid.p :101

(54): Catherine Kerbrat- Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Op.cit, p : 78.

(55): Ibidem.

(56): Ibidem.

(57)- عبد الهادي الشهري: آليات الحجاج وأدواته، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط:1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010، ص: 90.

(58)- نفسه، ص:121.

(59): Chaïm Perlman et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, op.cit, p :169.

(60): Catherine Kerbrat- Orcchioni : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Op.cit, p :80.

(61): Ibid, p :79.

(62)- أشار أرسطو إلى مجموعة من المواضع التي تؤكد بأن الخير أفضل من الشر، وبأن الحسن أفضل من القبيح. ومن ذلك مثلا قوله: "الخير هو الذي يتشوق إليه الكل" (أنظر أرسطو: الخطابة، ت: عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، 1959، ص: 34.).

(63)- سامية الدريدي: دراسات في الحجاج، ، ط:1, عالم الكتب الحديث ,إربد, 2009، ص: 127.

(64)- نفسه، ص: 128.

لائحة المصادر والمراجع:

(01): أرسطو: الخطابة، ت: عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، 1959.

(02): الدريدي سامية: دراسات في الحجاج، ، ط:1, عالم الكتب الحديث ,إربد, 2009.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(03): الراضي رشيد: مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو، ضمن عالم الفكر، ع:2، المجلد : 34، المجلد : 34، الكويت.
(04): الزبيدي مرتضى: تاج العروس، دار ليبيا، بنغازي، 1966.
(05): السيد فؤاد البهي: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980.
(06): الشهري عبد الهادي: آليات الحجاج وأدواته، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط:1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2010.
(07): صفوت أحمد زكي: جمهرة خطب العرب، ط:1، ج:1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1923.
(08): صولة عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ، ط:2، دار الفارابي، بيروت، 2007.
(09): طهطاوي سيد أحمد: القيم التربوية في قصص القرآن، ط:1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996.
(10): الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ط:2، مؤسسة الرسالة، 1987.
(11): لطفي بركات أحمد: القيم والتربية، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993.
(12): ابن منظور: لسان العرب، ط:1، دار صادر، بيروت، 1990.
(13): الناجح عز الدين: العامل الحجاجي والموضع، ضمن الحجاج والاستدلال الحجاجي، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ط:1، دار ورد للنشر والتوزيع، 2011.

المراجع الأعجمية:

(01): Botet Serge : La philosophie de Nietzsche, L'Harmattan, 2007.
(02): Dewey Jonh : La formation des valeurs, traduction :Alexandra Bilet, éditions :La Découverte, Paris.
(03): Leyens Stéphane :Penser les concepts éthiques, justifier les engagements moraux, Presses Universitaires de Namur, 2007.
(04): Micheli Raphaël et Thierry Herman : Renforcement et dissociation des valeurs dans l'argumentation politique, éd : Pratiques, Volume :117-118, 2003.
(05): Orcchioni Catherine Kerbrat : L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, Paris, 1980.
(06): Perelman Chaïm : L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation, Vrin, Paris, 1977.
(07): Perlman Chaïm et Lucie Olbrechts Tyteca : Traité de l'argumentation, , 2éme édition , éditions : Armand Colin , Paris, 2006.
(08): Toulmin Stephen : Les usages de l'argumentation , éditions : Presses Universitaires de France, 1ère édition, Paris,1993.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com